المحاضرة الخامسة: كتاب" سر الفصاحة "لابن سنان الخفاجي.

مدخل:

أدرك ابن سنان الخفاجي أهمية مصطلح الفصاحة فعمل على ضبط مدلوله ومضمونه بمفاهيم جديدة قلبت موازين البلاغة العربية منهجا وتأليفا، هدفها تمكين الأدباء والمتعلمين من فصيح الكلام وبليغ الخطاب وهذا ما استدعى حضور نظيره مصطلح البلاغة محدثا جدلا عميقا بينمه بالفصل؟ الباحثين لالتباس معناه وتشابك مفاهيمه مع مصطلح الفصاحة، فمنهم من ابينهما، ومنهم من ردّ سبب التشابك إلى صعوبة القبض على الخط الفاصل بين أبعادهما وتمثله ما والتي ميّزها التصادم الحاد بين البلاغيين؟ لشدة تداخلهما ولخصوصية المرحلة المعرفية المحيطة لتعلقهما بقضية اللفظ والمعنى، فظلّ مفهومهما متباينا ومستغلقا لعجزهم عن ضبطه بد قّة على هيئة يحتكم إليها الباحث في دراسة الفصاحة والبلاغة من ناحية المصطلح، فحاولت أن أستق رئما من تصورات؟ بعض الآراء والتعريفات من النصوص التي وُجدا فيها، للوقوف على ما اتصلا في كتابه: "سر الفصاحة" للإجابة؟ ا بتتبع دورا؟ حديثة ومدى انسجامها واستقرارها أو اضطرا عن تساؤلات مفادها: كيف بنى ابن سنان الخفاجي تصوره لمفهوم مصطلحي الفصاحة والبلاغة؟ وعلى أي أساس اعتمد في ذلك؟ وهل ف رّق فعلا بينهما أم لا؟

1- مفهوم مصطلح الفصاحة:

يحمل مصطلح الفصاحة عند ابن سنان الخفاجي دلالات لغوية عديدة، ما يدعو إلى الوقوف عندها إلى جانب معانيه في المعاجم اللّغوية العربية.

أ – لغة:

يقول: الفصاحة: الظهورُ والبيانُ، ومنها أفصح اللبنُ إذا انجلتْ رغوتُه، وفَصُحَ فهو فصيح

قال الشاعر: وَتَحْتَ الرَّغْوَةِ اللَّبَنُ الفَصِيحُ (الوافر)

ويقال: أفصح الصبح إذا بدا ضوءه، وأفصح كلّ شيء إذا وضح [i]، وفي الكتاب العزيز:

، ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أفصَحُ مِنّي لِسَانًا فأرْسِلْهُ مَعِي ردْءًا يُصَدِّقنِي﴾ (سورة القصص، الآية: 34)

وفِصْحُ النّصارى عيدُهم، وقد تكلمت به العرب، قال حسان بن ثابت: [ii]

وَدَنَا الفِصْحُ فالوَلاَئِدُ يَنْظِمْـ نَ سِرَاعًا أَكِلَّة المِرْجَانِ.

وسُمِّي الكلام الفصيح فصحياً، كما سمَّوْهُ بياناً، ولإعرابه عمّا عبّر عنه، وإظهاره له إظهارا جلي وجاء في مقاييس اللّغة: فصح (الفاء والصاد والحاء) أصل يدلّ على خلوص في شيء ونقاء من الشَّوب، وأفصَحَ الرّجل: تكلَّم بالعربيَّة، وفَصُحَ: جادت لغتهُ حتى لا يلحَنُ.[iii]

وفي تاج العروس من جواهر القاموس: والفَصِيح: المنطلق اللّسان في القول، الذي يعرف جيّد الكلام من رديئه[iv] .

وأما في لسان العرب: وفَصُح الأعجميُّ، فصاحة: تكلَّم بالعربيَّة وفُهِمَ عنه مما سبق نخلص إلى أنّ[v]: معنى الفصاحة اللّغوي عند ابن سنان الخفاجي لم يخرج عن حيّز الظهور والبيان والوضوح، ولم يذكر أنّه فرّق بينه وبين مصطلح البلاغة – لغويا– بل استعملهما بمعنى واحد، كما استخدمت المعاجم اللّغوية العربية مصطلح الفصاحة بمعنى خلوص وصفاء ونقاء لسان المتكلم بالعربية من اللّحن والعُجمة إلى الطلاقة والسلامة من العيوب النطقية.

ب– اصطلاحا:

قد يلاحظ الدارس في كتاب"سر الفصاحة" أنّ صاحبه لم يُفرد الفصاحة بتعريف يضبط مفهومها الاصطلاحي لأنّ هدفه حسب رأيي لم يكن الخوض في تحديد مفهومها بقدر ضبطهاا، واختصر الكلام بذكر الفرق بينها وبين البلاغة بقوله :بشروط لا تتحقق إلاّ ﴿والفرق بين الفصاحة والبلاغة أنّ الفصاحةَ مقصورةٌ على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلاّ وصفً ا للألفاظ مع المعاني، لا يُقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها، بليغة، وإن قيل فيها: فصيحة، وكلُّ كلام بليغ فصيحٌ، وليس كلُّ فصيح بليغًا، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه﴾ 8[vi]

ويقول في موضع آخر:

﴿وأق ول قبل كلامي في الفصاحة وبيانها: إنّي لم أر أقلّ من العارفين بهذه الصناعة، والمطبوعين على فهمها ونقدها، مع كثرة من يدّعي ذلك، ويتحلّى به، وينتسب إلى أهله، ويماري أصحابه في المجالس، ويجاري أربابه في المحافل، وقد كنت أظن أنّ هذا شيءٌ مقصورٌ على زماننا اليوم، ومعروفٌ في بلادنا هذه، حتى وجدتُ هذا الدّ اء قد أعيا أبا القاسم الحسنَ بن بشر الآمدي، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قبله، وأشكاهُما حتى ذكراه في كتبهما، فعلمتُ أنّ العادةَ به جاريةُ، والرَّزِيَّة فيه قديمة، ولما ذكرته رجوت الانتفاع به من هذا الكتاب، وأمَّلت وقوعَ الفائدة به، إذ كان النقص فيما أب نْتُهُ شاملا، والجهل به عاما، والعارفون حقيقته قُرْحَة الأدهم بالإضافة إلى غيرهم والنسبة إلى سواهم﴾ .[vii]

ويقول أيضا:

"...وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزأيها فكلامي على المقصود، وهو الفصاحة، غير متميّز إلاّ في الموضع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدّمت ذكره، فأما ما سوى ذلك فَعامٌّ لا يختص، وخليطٌ لا ينق ...".[viii]

2- مفهوم مصطلح البلاغة:

ارتبط ظهور مصطلح الفصاحة عند ابن سنان الخفاجي بمصطلح البلاغة فأخذ الأول حيّزا كبيرا من كتابه إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من مناقشة تعريفات سابقيه لمصطلح البلاغة بشيء من الاحتراز رافضا الكثير منها:

قيل: ﴿وقد حدّ النّاسُ البلاغة بحدود إذا حُقِّقت كانت كالرّسوم والعلائم، وليست بالحدود الصحيحة، فمن ذلك قول بعضهم: لمحةٌ دالة . وهذا وصفٌ من صفاتها، فأما أن يكون حاصرا لها، وحدّا يُحيط بها فليس ذلك بممكن؛ لدخول الإشارة من غير كلام يُتلفّظ به تحت هذا الحدّ ﴾.[ix]

ورفض قولهم: ﴿البلاغة معرفة الفصل من الوصل؛ لأنّ الإنسان قد يكون عارفاً بالفصل والوصل، عالما بتمييز مختار الكلام من مطّرحه، وليس بينه وبين البلاغة سبب ولا نسبٌ، ولا يمكنه أن يؤلف ما يختاره من تأليف غيره، والحدود لا يحسن فيها التأوّل، وإقامة المعاذير، وغرابة ألفاظ تدلّ على المقصود؛ لأنّها مبنيّة على الكشف الواضح، موضوعة للبيان الظّاهر، والغرضُ بها السلامة من الغامض، فكيف تُوقعُ في غامض مثله! ﴾ .[x]

وأيضا: "وكذلك قول الآخر: البلاغة أن تُصيبَ فلا تخطىء، وتسرعَ فلا تبطىء، لأنّ هذا يصلح لكل الصنائع، وليس بمقصور على صناعة البلاغة وحدها، ثمّ إنّما سئل عن بيان الصواب في هذه الصناعة من الخطأ فجعل جواب السائل نفس سؤاله، وبهذا أيضا يفسد قول من ادّ عى أنّ حدّها: الإيجاز من غير عجز، والإطناب من غير خطل، وقول من قال: البلاغة اختيارُ الكلام، وتصحيحُ الأقسام؛ لأنّ هذين إنّما سئلا عن حدٍّ يُبيّن الكلام المرفوض / من المختار، والخطأ من الصواب، ويوضح كيف يكون الإيجاز مختارا، ومتى يقع الإطناب مرضيا محمودا، فأحالا على ما السؤال فيه باق، وعدم العلم معه موجود".[xi]

من الواضح أنّ ابن سنان الخفاجي لم يقتنع بما قدّمه سابق وه من تعريفات لمصطلح البلاغة لأنّه اعتراها ما اعترى غيرها من النقص، فبعضهم ذكر وصفا من أوصافها في قولهم: "لمحة دالة" بمعنى (الإيجاز) وليس حدا[xii]، والآخر وصفها بحسن اختيار الكلام، وآخر بإصابة المعنى، وهي ا لم تلمس جوهر البلاغة كلها تعريفات قيلت للإجابة عن السؤال التقليدي ما البلاغة؟ إلاّ أّ ولم تعط تحديدات جامعة مانعة يُحتكم إليها حين يعجز المتكلم عن التمييز بين الصواب والخطأ، لجهله بمقاييس الفصاحة مما يؤدي إلى استغلاق المعنى في ذهن السامع وإعاقة العملية التواصلية مما

دفعه إلى استحسان تعريف آخر يقول: ﴿وما أحسن ما قال إبراهيم بن محمد المعروف بالإمام: يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع، وهذا كلام مختار

في تفضيل البلاغ فهذا يعني أنّ : ابن سنان الخفاجي استنكر التعريفات البلاغية التي عناصر العملية التواصلية وتركز على صفات وخصائص البلاغة: (الإيجاز، وحسن اختيار الكلام، وإصابة المعنى)، لأنّ المتعلم يبحث عن من يزوّده بالقدرة على إنتاج الكلام البليغ وإيصال المعنى إلى السامع وبالتالي تحقيق عملية الفهم والإفهام؛ أي أنّ عملية التواصل لا تتحقق إلاّ بوجود طرفين متكلم وسامع، ويشترط في المتكلم أن يكون فصيحا ويضبط تعابيره بالتزامه بمقاييس الفصاحة (شروط نصّية داخلية) ليتمكن من توصيل مقاصده إلى السامع والتأثير فيه مع مراعاة مقتضى حاله أثناء الكلام وهذا ما يمنح الإفادة والفعالية للرسالة (الخطاب).

3- الفرق بين مصطلحي الفصاحة والبلاغة:

بناء على كل ما تقدم يمكن القول:

1-لم يضع ابن سنان الخفاجي تعريفا جامعا مانعا لمصطلحي الفصاحة والبلاغة بل اكتفى بنقل آراء سابقيه ومناقشتها، لأنّه من المعتزلة، ومن أعلام المدرسة الأدبية والتي من خصائصها: عدم الاهتمام بوضع التحديدات والتعريفات.

2-فرّق بين مصطلحي الفصاحة والبلاغة نظريا (في بعض المواضع) لتوضيح منهج كتابه الذي ينطلق من اللفظ إلى التركيب إلى المعنى إلاّ أنّه لم يلتزم بالفصل بينهما تطبيقا فجمع بينهما في معرض حديثه عن شروط ونعوت الفصاحة والبلاغة.

3- ارتكز مفهومه للفصاحة والبلاغة على فكرة التواصل التي تبدأ من أهم عنصر من عناصر الخطاب المرسل (المتكلم) فيشترط منه إفهام المعاني والقصدية والإفادة (حسن التأليف والتركيب) وإيصالها إلى السامع وربطها بمقتضى حاله، وكذلك الاهتمام بالرسالة لدورها الفعّال في تحقيق أغراض ومقاصد المتكلم وبلاغة خطابه، وتجدر الإشارة إلى أنّ البلاغة في اعتمادها على البعد التواصلي بين منتجي الخطاب (المخاطِب والمخاطَب) ومقامه حين إنتاج الخطاب

ومقاصده يكشف عن ملامح تداولية بشكل يستفز لإثارة إشكالية مقال آخر لرصد مظاهرها في كتاب"سر الفصاحة "

الحواشي:

[i] – ابن سنان الخفاجي(أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد)، سر الفصاحة، حققه وعلّق عليه وصنع فهارسه: النبوي عبد الواحد شعلان، دار قباء، القاهرة، (د ط)، 2003 م، ص: 66.

[ii] – المصدر نفسه: ص66.

[iii] – ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن زكريّا)، مقاييس اللّغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د.ط)، (د.ت)، 4/ 506–507، مادة: (فصح).

[iv] – الزبيدي(السيّد محمد مرتضى الحسيني)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، 1994م، مطبعة حكومة الكويت، الكويت،7 / 18، مادة: (فصح).

[v] – ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم الافريقي المصري)، لسان العرب، دار صادر، (د ط)، بيروت، (د ت)، 542/2، مادة: (فصح).

[vi] – ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص: 67.

[vii] – المصدر نفسه: ص 73.

[viii] – المصدر نفسه: ص ص67.

[ix] – محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: أفريقيا الشرق، المغرب، (د ط)، 1999 م، ص:14.

[x] – المصدر نفسه : ص 67–68.

[xi] – المصدر نفسه: ص68.

[xii] – جابر بن حيان، رسالة الحدود، دراسة وتحقيق وتعليق: عبد الأمير الأعسم في كتابه: المصطلح الفلسفي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989 م ، ص: 165.